إميرات الطرب

- «أسمهان» (بين الفن والطرب والسياسة)
- «منيرة المهدية» (سلطانة الطرب)
- «أم كلثوم» (صوت السياسة الجميل)

أسمهان

الأميرة الطموح بين الفن والطرب والسياسة

- عاشت حياتها جريًا وراء ذاتها.
- ربيعية الحياة، زهرة قطفت فى عز الربيع.
- الصوت النسائى الثانى بعد أم كلثوم.
- عاشت وماتت أميرة.
- تصرفت كزعيمة سياسية، وتعرضت لأكثر من محاولة اغتيال.
- اتهموا القصر والملكة نازلى وأم كلثوم بقتلها.

قد يعشق الفرد ذاته ويُفتن بها، ويصبح أسيراً لديها. وقد يدفعه هذا العشق إلى الانتحار إكرامًا لذاته الغامضة. ويبدو أن هذا ما أصاب الننانة أسمهان، تلك الأميرة الجبلية، خضراء العينين، ذات الصوت الساحر.

عاشت حياتها القصيرة جريًا وراء ذاتها، وسعيًا إلى النهاية التى كتبت سطورها من خلال كل مغامرة أقدمت عليها مدفوعة بعشقها ذاتها. وقال عنها بعض من عرفوها إنها كانت تعرف أنها جميلة مرغوبة. وفى عينيها سحر لا يقاوم، فلِمَ لا تكون درّة فى تاج الحياة؟.

قال «عرّاف» لأسمهان يومًا إنها «ربيعية الحياة» فكانت كالزهر، تعشق العبير، تتنفس العطر، تنشر البهجة، وتنشد السعادة، ما دام العمر قصيراً، وركبت جواد الحياة الجامح، محاولة أن تصل إلى نهاية السباق قبل أن تجف أوراق الحياة، وهى التى عشقت الضوء، سعت إليه بشوق فراشة تصر على الانتحار مجداً.

ميلاد فوق الماء

على ظهر باخرة قادمة من بلاد البلقان، ووسط ثورة الأمواج، جاءت إلى الحياة يوم ٢٥ نوفمبر (تشرين الثانى) سنة ١٩١٢ «آمال» ابنة فهد فرحان الأطرش، وهذا هو اسم «أسمهان» الحقيقى. أطلقوا عليها «أمال» أملاً فى أن تكون بشير سعد ونجاة من الغرق، وأن تهدأ الأمواج وتستقر، ويصل الجميع إلى بر الأمان، ورست السفينة بسلام فى ميناء بيروت، ولكن أمواج حياة الطفلة الوليدة ظلت ثائرة هادرة، وكأن البحر يناديها.

والدها الأمير فهد الأطرش خريج مدرسة الحقوق فى تركيا، عُين مدير ناحية فى «القريا» فى جبل العرب، وهناك وُلِدَ فؤاد وفريد شقيقا أسمهان. ثم انتقل

إلى «حاصبيا»، فكان قائم مقام البلدة، ثم إلى «حمص» حيث كان متصرفها، ثم حكّم فى أزمير فى الأناضول، وظل فيها إلى أن اضطربت الأحوال فقرر العودة إلى بيروت. وقد شغل الأمير فهد الأطرش بعد عودته عدة مناصب قضائية فى عهد الفرنسيين، وصل فيها إلى رئيس محكمة الاستئناف فى السويداء عاصمة جبل الدروز. وتوفى عام ١٩٤٣.

أما والدتها، فهى الأميرة علياء حسين المنذر، من أُسرة تنحدر من قبيلة عربية سورية، يتصل نسبها إلى النعمان بن المنذر، ملك الحيرة فى عهد الدولة الغسانية. وكانت هى الزوجة الثانية فى حياة فهد فرحان الأطرش، الذى تزوج بعدها للمرة الثالثة عام ١٩٢٠.

من الجبل إلى القاهرة

بدأت عام ١٩٢٣ بوادر ثورة جبل الدروز فى سوريا بقيادة سلطان الأطرش باشا ضد الفرنسيين، فحملت الأميرة علياء أولادها وهربت من الجبل إلى بيروت. وكانت الخلافات قد نشبت بين الزوجين بسبب زواج الأب، ورفضت الأميرة «علياء» العودة إلى الجبل بعد أن تعودت على حياة المدينة، وخوفًا من أن يختطف الأب أولاده هربت بهم مرة أُخرى إلى القاهرة عام ١٩٢٤.

أقامت أُسرة الأطرَش فى حى الظاهر فى القاهرة، وضمت الأميرة علياء وفؤاد الابن الأكبر، الذى كان عمره ١٧ سنة وفريد (١٥) سنة) وأمال (١٢) سنة)، والتحق فؤاد وفريد بمدرسة بطريركية الروم الكاثوليك، بينما تلقت آمال تعليمها فى البيت.

وكانت الأميرة علياء سيدة مثقفة تحفظ الكثير من الشعر القديم والحديث، وكانت مشهورة بالصوت الجميل، تحفظ أيضًا الكثير من أغنيات الفولكلور اللبنانى والسورى والمصرى، إلى جانب إجادتها العزف على العود. وحاولت الأميرة أن تعيش كما كانت تحيا فى بلدها، إلا أن أموالها ومواردها كانت قد نضبت، فاضطرت إلى العمل من أجل توفير الحياة الكريمة لأولادها خاصة بعد

أن انقطع ما كان يأتى إليها من الأهل من أموال. وغنت فى الإذاعات الأهلية واشتركت فى بعض الحفلات، وتوثقت علاقتها بكبار الملحنين فى ذلك الوقت، أمثال داوود حسنى والقصبجى، والسنباطى.

نشأت آمال وسط هذا الجو المفعم بالأدب والفن ومعها شقيقها فريد الذى عشق الطرب والعزف على العود، وكانت آمال تستمع لعزف أمها على العود، وتنام على وقع صوتها الجميل، وهى تغنى أغنيات الجبل والبادية والريف والحضر إلى جانب أغنياتها المسجلة على اسطوانات، وعاشت تلك الأغنيات فى وجدان الإبنة، وتأثرت بكل ما كانت تغنى أمها، التى وَرَّثتها الصوت الجميل.

مصير اسم

ولم يعلن عشق الصغيرة الطرب عن نفسه، ويذيع سره وينتشر إلا عندما سمعها مصادفة الموسيقار داوود حسنى، بينما كان يجلس مع أمها الأميرة عليـاء، فى أغنية «سكت والدمع تكلم» التى كانت تشدو بها أم كلثوم من «الفونوغراف»، كانا فى حالة إصغاء تام وهيام مع اللحن الجميل، وكانت آمال تغنى فى الداخل نفس اللحن، فسمعها وسأل: من ذا الذى كان يغنى نفس اللحن مع صوت أم كلثوم؟ فقالت الأم: أنه صوت «إميلى» ـ الاسم الذى كانت تنادى به ابنتها ـ وطلب داوود حسنى من الصغيرة أن تغنى أمامه، وكان سعيدًا جدًا لأنه اكتشف «صوتًا قادمًا من السماء». كما قال: واحتضن موهبة آمال، وتوقع لها مستقبلاً كبيراً فى دنيا الطرب. ولكنه اختار لها اسمًا جديدًا تصدح به فى سماء الفن.

قال لها: «يحكى التاريخ الفنى عن مطربة عاشت فى الزمن القديم، كانت عذبة الصوت، ذات شهرة واسعة، واسمها أسمهان. فلتكونى أنت امتدادًا لها، ولعلّك تكونين فى شهرتها».

وكانت لها بالفعل شهرة صاحبة الاسم، وأيضًا النهاية ذاتها. فقد انتهت حياة «أسمهان» الزمن القديم بمأساة.

ألحان وألحان

وتغيرت حياة آمال بعد أن حملت الاسم الجديد وتركت حياة الهدوء إلى دنيا الصخب وضجيج الشهرة، وبلغت أسمهان عام ١٩٢٩، السابعة عشرة من عمرها، وكانت قد تدربت على الغناء على يد مكتشفها، وحفظت الكثير من أغانى والدتها وأخيها فريد. ووضع لها يوسف بدروس، كلمات أول أغنية، «يا نار فؤادى ونور عينى» التى لحنها فريد غصن.

وعملت مع شقيقها فريد مغنية فى صالة «مارى منصور» فى شارع عماد الدين، وكان أجرها هى وفريد ٥٠ قرشًا فى الليلة الواحدة. وشقت «أسمهان» طريقها فى الفن وأخذت تغنى لبعض الإذاعات الأهلية من ألحان داوود حسنى، ومحمد القصبجى، ومدحت عاصم، وبدأ اسمها يتردد كثيرًا ويصدح نجمها فى الغناء. وغضبت أسرة أبيها الكبيرة لهذا الاتجاه، وأرسلت إلى القاهرة مَن يقتلها.

عودة إلى الجبل

كان الأمير حسن الأطرش هو من أرسل مكلفًا بهذه المهمة. ووصل الأمير إلى مكان إقامة الأميرة «علياء» و «أسمهان»، وعندما فتحت الأميرة الصغيرة الباب سحرته عيناها الخضراوان فوقع فى حبها من أول نظرة، ونسى الأمر الذى جاء من أجله. وراح يخطب ود الأميرة، ويطلب الزواج بها، ووافقت الأم بتشجيع من فؤاد، الأخ الأكبر الذى كان يعارض اشتغال شقيقته فى الفن. ورغم عدم حماسها لهذا التحول وحبها دنيا الطرب، لم تملك أسمهان إلا أن توافق على الزواج، وعادت إلى السويداء عام ١٩٣٣ زوجة للأمير حسن الأطرش.

قضت أسمهان فى جبل الدروز حوالى ست سنوات حافلة بالمعاناة وعدم الرضا والانهيارات العصبية. فقد ضاقت بحياة الجبل وعاداته، وشعرت بأنها عصفور حبيس فى قفص الزوجية، وهى الطائر الطليق الذى يعشق الحرية. وحاولت الانتحار أكثر من مرة، ولما وجد الأمير أن الحياة بينهما وصلت إلى

طريق مسدود، أعطاها حريتها، وعادت إلى القاهرة وهى تحمل بين أحشائها ثمرة هذا الزواج الذى أطل على الدنيا فى ١٤ يوليو (تموز) سنة ١٩٤٠، فى جسد طفلة أطلقت عليها اسم «كاميليا».

وجعلها حبها للفن تضحى بكل شىء. ومن أجل «أسمهان» الفنانة كان على «آمال» أن تترك الإمارة والأمير والقصر والطفلة الصغيرة، وتتفرغ لتحقيق حلمها الفنى.

وحلّقت فى سماء الفن على جناحين من جمال الصوت والرغبة فى إثبات الذات وعشقًا لها.

فى قفص المخابرات

كانت أسمهان تحب حياة الشهرة والمجتمعات الراقية وتصرّ على أن تتصرف فى الحياة كأميرة، وأصبحت واحدة من ألمع النجوم والصوت النسائى الثانى بعد أم كلثوم، وأنفقت أموالاً كثيرة، وحاصرتها الديون، ولعلّ هذه كانت نقطة الضعف التى نفذت منها المخابرات البريطانية إليها.

تلقفت المخابرات البريطانية أسمهان التى كانت تعانى من أزمات كثيرة، ومنها الأزمة المالية المستمرة نتيجة الإسراف الشديد، والأزمة مع أسرتها فى القاهرة وخاصة شقيقها فؤاد الذى كان يعترض على تصرفاتها، وأزمة حصولها على الإقامة فى مصر بوصفها غريبة تحتاج إلى تجديد هذه الإقامة.

كانت تجلس فى شرفة فندق كونتيننتال فى القاهرة إبّان الحرب العالمية الثانية، وعيون المخابرات البريطانية ترقبها، وهى تنفث دخان سيجارتها على شكل سحابة من الحزن، والهموم تطل على وجهها الجميل.

وكان العرض الذى قدمته لها المخابرات سداد كل ديونها، ووضع أربعين ألف جنيه تحت تصرفها، مقابل أن تقنع الدروز بأن يقفوا مع الإنجليز، ووافقت على المهمة.

زعيمة سياسية

واستُقبلت أسمهان فى جبل الدروز استقبالاً طيبًا، وكانت نيران حبها لاتزال كامنة فى قلب الأمير حسن، الذى وافق على التعاون مع الإنجليز والحلفاء بشرط أن تعود إليه كزوجة، وبعد أن دخل الحلفاء سوريا، عادت أسمهان إلى زوجها بعقد قران جديد، حضره كبار المسؤولين الإنجليز والفرنسيين، وعاشت المطربة دور الزعيمة السياسية وأخذت تدلى بتصريحات سياسية، وتعرضت لأكثر من محاولة اغتيال، وكان عليها أن تترك سوريا فوراً، وتنكرت فى زى خادم حتى وصلت إلى القدس حيث أقامت فى فندق الملك داوود.

وكانت أسمهان تفقد السيطرة على لسانها عندما تشرب، وكان الكأس لا يفارقها، وربما خرجت منها فى نوبات منادمة الكأس كلمات تفصح عن علاقتها بالمخابرات البريطانية والعميل إذا ما انكشف ستره، أصبح خطراً يجب التخلص منه، كفت المخابرات يدها ورفعت حمايتها عن أسمهان، التى بدأت تشعر بالقلق والخوف على نضوب مصدر الأموال. وكانت قد أجادت لعبة المخابرات، فلماذا لا تكون عونًا للألمان أيضًا؟.

تعرفت على صحافى أميركى كان جاسوسًا للألمان، وقبل أن تلتقى بالمسؤولين فى المخابرات الألمانية وصلت يد المخابرات البريطانية إليها، واعترفت وتم اعتقال الصحافى الأمريكى، وأصبحت «أسمهان» مطلوبة للثأر من المخابرات الألمانية، فقررت الهرب مرة أخرى إلى القدس طمعًا فى العودة إلى القاهرة.

زواج صورى

ولكن، كيف تعود وهى التى خرجت مطرودة بأمر من الملكة نازلى ورئيس وزراء مصر؟.

وكان الحل هو أن تتزوج بمواطن مصرى.

التقت أسمهان وشقيقها فريد وكان مرتبطًا بعمل فى حيفا والقدس، وكانت معه الراقصة تحية كاريوكا وزوجها أحمد سالم، جلسوا جميعًا يبحثون عن حل، واتفقوا على أن يتزوجها أحمد سالم صوريًا، وعادت أسمهان إلى مصر خلال أيام حيث عادت إلى حياتها التى أحبتها، وإلى فنها الذى لم تستغن عنه، واتفقت معها شركة «استديو مصر» على بطولة فيلم «غرام وانتقام» أمام يوسف وهبى الذى أخرج الفيلم أيضًا وحصلت اسمهان على ٣٥ ألف جنيه كأجر لها، وهو رقم خيالى فى ذلك الوقت لم يحصل عليه فنان قبلها.

ولكن أسمهان ـ وكالعادة ـ لم تطق الحياة الزوجية، ولم تتحمل القيود، خاصة وأن غيرة أحمد سالم ازدادت وباتت قيدًا على تصرفاتها، حتى وصل الأمر إلى طلب الطلاق، لكنه رفض ذلك، وهددها بالقتل، وحدثت مشاجرة وحضرت الشرطة وتبادل الزوج معهم اطلاق الرصاص، وأُصيب ونُقل إلى المستشفى.

أصابتها الأحداث المتلاحقة مع ضغوط العمل، بالإرهاق والملل، فأستأذنت يوسف وهبى فى السفر إلى «رأس البر» حتى تريح أعصابها. وتعود موفورة النشاط، ولكنها لم تعد، فقد غرقت فى مياه النيل، وكان عمرها ٣٢ عامًا، فقد انقلبت بها السيارة وهى فى الطريق إلى رأس البر بعد مدينة المنصورة فى الساعة العاشرة من يوم ١٤ يوليو سنة ١٩٤٤، وتوقف الصوت الجميل عن الغناء.

شكوك

وأثار موتها عاصفة من الشكوك حول مقتلها. واختلفت التفاسير، وأشار البعض بأصابع الاتهام إلى القصر والملكة نازلى التى كانت تنافسها على قلب أحمد حسنين باشا، ورأى بعضهم أن التى حرضت على قتلها الفنانة أم كلثوم التى كانت تنافسها على عرش الغناء. وقال بعضهم إن أحمد سالم زوجها الأخير

كان وراء الحادث. واتهم البعض المخابرات البريطانية والألمانية بأنها هى التى دبرت مقتلها. وهذا هو الأرجح وفقًا لما قاله الفريق عزيز المصرى فى مذكراته. فقد رأت هذه المخابرات بعد عودة اسمهان إلى القاهرة، وبقائها فيها أمرًا بالغ الخطورة. فهى تعرف الكثير من الأسرار ولابد من إسكاتها إلى الأبد، ودُبر الحادث بالقرب من المنصورة مدينة أم كلثوم حتى تلتصق التهمة بها. وهذا هو أيضًا ما ذهب إليه فؤاد الأطرش شقيق أسمهان، حتى لا تتعاون أسمهان مع المخابرات الألمانية وكذلك صديقتها تحية كاريوكا، وشقيقها فريد الأطرش.